صورة جلالة السلطان سيدي محمد بن يوسف

(المهدى إليه الكتاب)

موقعا عليها بخطه الكريم في كلمة شرف بها المؤلف

هـــذه صـــورة لأســـمى مليـــك ... ملـــك المغـــرب المفـــدى محمـــد

فـــانظر النبـــل والـــذكاء وأخـــلا ... ق نـــسيم تـــرى الجميـــع مجـــد

نـــاهض بـــالفنون والعلـــم والعـــد ... ل لـــشعب بملكـــه الـــدهر يـــسعد

دام في منعـــة ونـــصر عزيـــز ... وشـــفوف طـــول المـــدا يتجـــدد

إهداء الكتاب

مولاي:

لما تم لهذه الدرر مطلع بدرها، وسعد بملوك المغرب عليٌّ قدرها ألفيتها عقيلة لا كفء لها إلا سلطان عصرها؛ إذ هو بيت القصيد من قصرها، فيممت بها أعتابه الشريف، ووضعتها وهي المرفوعة به في ظلاله الوريفة، فزادت ابتهاجا وانشدت، وعن ذكرى فخره الكامل ما عدت:

مـــولاي ذي (درر) بـــدت بـــك فـــاخره ... أزري ســـناها بالـــدراري الزاهـــره

حليـــتُ مـــؤتمر العلـــوم بهـــا وقـــد ... ألقـــى بفـــاس رحلـــه ومظـــاهره

شـــفنتُ مـــسمعه بحليـــة صـــفوة ... آثـــارهم في الملـــك أضـــحت بـــاهره
جافـــت جنـــوبهم مـــضاجع راحـــة ... في نفـــع أمـــتهم بعـــين ســـاهره
كـــم جاهـــدوا في الله حـــق جهـــاده ... بـــسيوف عـــدل للمحـــارب قـــاهره
كـــانوا الأبـــاة فـــلا يـــضام نـــزيلهم ... لكـــن نفوســـهم الأبيـــة طـــاهره
آثـــارهم أضـــحت بفـــاس شـــاهدا ... عـــدلا لعـــشاق البـــدائع ظـــاهره
ســـامرت فيهـــا قاصـــدا إرشـــاد مـــن ... ضـــل الطريـــق ولم يجـــب بالـــساهره
مـــن باحـــث مستـــشرق أو ســـائح ... في الفـــن ينفـــق تِـــبرْهُ وجـــواهره
وإذا تـــشوفت النفـــوس لغيرهـــا ... فقلاعهـــم لظُبَـــى الحقيقـــة شـــاهره
وحـــصوهم كـــشُهَارة مـــشهورة ... وقـــصورهم أنـــست جمـــال الزاهـــره
يكفيـــك مـــا قـــد أســـست همـــم لهـــم ... بـــالمغرب الأقـــصى فبـــذ القـــاهره
فإليكهـــا عـــذراء روح عبيرهـــا ... زمـــن الربيـــع بـــه يُمـــد أزاهـــره
تبغـــي القبـــول وللثـــرى قـــد قبلـــت ... ويفخـــر دولتـــك الـــشريفة جـــاهره
شرفـــت بنـــسبتها إليـــك وانهـــا ... صـــنعت بكـــف في الـــصناعة مـــاهره
تاهـــت دلالا وهـــي قـــول صـــادق ... أفـــلا تكـــون لمـــن يعـــارض نـــاهره
حـــسب (ابـــن زيـــدان) افتخـــارا أنـــه ... أمـــداحكم صـــارت لديـــهُ مـــداهره

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه، الحمد لله حمد مستمد من منته وطَوله، مستعد بقوته وحوله، والصلاة والسلام على من أزرى صينه بأزهار الشماريخ، وحول منذ أشرقت شمس طلعته على الوجود مجرى التاريخ، حتى أجمعت الأمم على التأريخ بهجرته، وسبحت الأفكار في نير مجرته، سيدنا محمد الذي حاز بين الأنبياء والرسل من الفضل أكمل الحصص، وقصَّ الله عليه في كتابه الحكيم أحسن القصص، وعلى آله الليوث المغاوير، وأصحابه الفاتحين المشاهير، ما أُفرغ تاريخ في قالب الحقيقة، وما كانت الحقيقة بإزهاق الشعوذة حقيقة؛ أمَّا بعد فيقول خديم العلم والتاريخ عبد الرحمن ابن زيدان الحسني العلوي ألهمه الله رشده، وبالتوفيق أمده:

إن أهم ما يرتاح إليه الضمير، ويتسابق في مضماره المأمور والأمير، تسابق من طبع على الأدب إلى أخبار السمير، وأن أنفس ما ينفاح عنه الأريب بسيف عزمه، ويخزم اللبيب لاقتنائه بحزام حزمه، هو ما يعود نفعه على المجتمع، ويخص بعموم فائدته من قرأ أو استمع، ويحق له أن تنفق الأوقات النفيسة عليه، ونبذل جواهر الأعمار في الوصول إليه، رعيًا لباعث الشرف السامي على كل شرف، وسعيا وراء إرضاء السلف، وتحصين مآثرهم من التلف، حتى كأنهم في ميدان[1] الحياة يسرحون، وفي حلل مجدهم الفاخرة يمرحون، فمن حسنات دينية إلى مزايا دنيوية، ومن أخلاق علية إلى أسرار جلية، تجدد كل آن لهم ذكرا، وتبتهج بها بنو جلدتهم عينا وفكرا، ولا سيما وهم أهل الحياتين؛ الحياة المادية المقضي عليها بالاندثار في هذه الدار، والحياة الأدبية التي تتجدد بتجدد الجديدين وتوالي الأعصار، والعاقل من يرى أن ماثل الآثار، هو من قبيل النسل البار، وزبدة الحياة التي تتمخض عنها الحقيقة، ونتيجة الأعمار التي تبرزها أسرار الخليقة، فتكون بالاعتبار والدرس خليقه:

---

[1] بالفتح والكسر.

فقلت لهم نسلي بدائع حكمتي فسم سره نسل فأنا بها نسلو

أجل إننا كلما تتبعنا في خطواتنا أسلوب الحكيم، وتلونا بتدبر آيات الذكر الحكيم، وجدنا أنفسنا متمسكين في عملنا هذا بهدايته، مقتفين أثر خليله وحامل رسالته؛ حيث قال في موقف الداعين الذاكرين: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين}. وقد أفصح عن ذلك خير من ظللته الغمامة، بقوله: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»، وبقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث»، وقد أنهى الحافظ السيوطي ما ينتفع به الإنسان وهو في دار البقاء، إلى إحدى عشرة خصلة مما خلفه في دار الفناء.

فلا غرو إذا شغفل ملوكنا العلويون حماة الإسلام، وسلاطين سلطته العظام «لا زال فخرهم مخلدا، وعنوان مجدهم في الوجود مجددا» بتشييد الآثار، وحياطتها من الاندثار، وتخليدها شاهدا عدلا على أن لهم في الحضارة وحسن النظام القدح المعلي، فإن كانت هي الدالة على المدنية فهذه آياتها تتلى، لا تقبل غمطا ولا طمسا ولا ختلا، وإن كانت المدنية في استقلال القضاء وتوحيده، فقد دأبوا في تنسيقه وتنظيمه وتوطيده، وإن كانت المدنية في نظام الجند، فقد رفرف به على مملكتهم الشاسعة البند، وإن كانت المدنية في ضبط الجباية، فقد بلغوا فيه النهاية، وإن كانت المدنية في اختيار العمال، فقد قاموا في ذلك بجلائل الأعمال، وإن كانت المدنية في الرفق بالرعية، فقد سلكوا طريقها المرعية، وإن كانت المدنية في الديمقراطية، فإنها لا تكاد تتحقق إلا فيهم في كل طية، وإن كانت المدنية في القيام بالشئون الداخلية والخارجية، فقد أحسنوا القيام بها وحاطوها بسياج التدبير من كل ناحية، وإن كانت المدنية في تعميم التعليم، فقد قاموا بنشره في كل إقليم، وإن كانت المدنية في نشر الدين، فقد كانوا في سمائه نجوم المهتدين، ورجوم المعتدين، وإن كانت المدنية في الجري على مقتضيات علوم الصحة، فقد كان كل منهم يبذل في تطبيقها على الأمة نصحه، ولا سيما وتعاليم

الدين الإسلامي تنفحهم من ذلك بأطيب نفحة، وترد عن المحافظة عليها هجير الوباء ولفحه، والدين النظافة، فأهله آمنون من كل عاهة وآفة، وإن كانت المدنية في تزعم الحروب والسياسة، فإنهم مثال القدوة في ذلك والكياسة، وإن كانت المدنية في تنظيم الخراج، وحياطة بيت مال المسلمين بأحصن سياج، فقد كانوا في ذلك على أقوم منهاج، وإن كانت المدنية في ترتيب الرحلات والتشبث بالرياضة، فقد كانوا في ذلك روح الأمة الفياضة، حتى ضربت بشجاعة أتباعهم الأمثال، وسجل ثبات جأشهم في سجل عظماء الأبطال، وحتى كان المغرب يرهب جانبه، وتخشى سطوته أجانبه، وإن كانت المدنية في مقاومة الفوضى[١] والهمجية[٢]، فقد أثبت ذلك تاريخ مجدهم بأحرف بارزة ذهبية، وإن كانت المدنية في أحكام قوانين المحاكم، والتسوية فيها بين المحكومين والحاكم، فتلك شنشنتهم المعروفة، وطريقة سلفهم وخلفهم المألوفة، على أنَّ المدنية في الحقيقة، هي المرفق بالخليقة، ونشر لواء السلم، على أساس الإنصاف والعلم، ولا أضمن لذلك سوى تعاليم الإسلام، التي كانوا هم الذائدين عنها والمتمسكين بها في كل مقام، وسيمر بكم في هذه المسامرة من آثارهم، ما يحق لكم ذلك من حسن إيثارهم.

ولطالما والله هممت باستقصاء أعمالهم، وما حققه إخلاصهم لله من آمالهم، فأتراجع القهقري، وأقول لنفسي أطرق كرا، أن النعام في القرى، ولكن حيث كان ما لا يدرك كله، لا يترك بعضه أو جله، جمعت من زوايا الإهمال، ما أستعرضه أمامكم بالتفصيل والإجمال، مما لهم بخصوص فاس من الآثار، ذات المحاسن الفنية الجليلة المقدار، لأوقفكم ما لا يستهان به، ولا ينبغي لمؤرخ باحث أن يفنك عن سببه، وهأنا ذا أسامركم في هذا المساء سالكا فيما أحدثكم به عن ملوكنا الأشراف العلويين

---

(١) ككسرى.

(٢) الحمق وسوء التدبر.

وآثارهم بفاس طريق الترتيب الطبيعي فأقول:

قد كنت رتبت مسامرتي في المؤتمر الثامن لمعهد المباحث العلمية المغربية الذي انعقد بفاس يوم الخميس الموفى عشرين من شهر ذي القعدة الحرام عام أحد وخمسين وثلاثمائة وألف موافق سنة ١٩٣٣ على فصلين؛ أحدهما في نظام الدولة داخل القصر وخارجه، وثانيهما فيما لملوكنا من الآثار العلمية والفنية بفاس زيادة على ما أدرجناه في تاريخنا الاتحاف مستدلين على ذلك بما لا زال ماثلا للعيان من النقوش الخشيبة والكتابة البارزة على الجِبْسِ والأحجار.

وإنني أرى هنا من آكد الواجبات الأدبية رفع صوت الثناء والشكر لرجل العمل المتواصل والسهر على البحث والتنقيب على الكتب القيمة (م) لافي ابروفنصال مدير المعهد العلمي برباط الفتح؛ إعلانا بما بذله من الجهود وأبداه من أصالة الرأي في إخراج الكتب العربية من زوايا الإهمال إلى الطبع والنشر، وأسسه من المشاريع العلمية التي لا يُمترى في تحبيذ نتائجها المزدوجة والإقرار بأنها من حميد المساعي وخير المجهودات؛ وأكبر شاهد هذا المؤتمر الجم الجدوى، العظيم الفائدة، المشحذ للأذهان، الباعث للهمم من مرقدها، فلولاه ما قمت على سَاق بانتساق، لجمع هذه المسامرة التي أملي فقرات منها وشذرات ذهبية على مسامعكم.

وحيث توفرت المواد وتكاثرت بعد ذلك وطال الموضوع وطالب، ظهر لي أن أفرد النظام بمؤلف، والآثار بمجلد كل على حدة؛ كما لاح لي ألا أقتصر في ترجمة ملكنا المحبوب «أيده الله ونصره» على ما له بفاس من الآثار الناطقة بفضل؛ بل أُدرج فيها ما له من غيرها من أمهات المدن والقرى، جعلنا الله ممن تمسك منه بوثيق العرى، وأعاننا على ما نحن بصدده، وأمدنا بتسديده وعونه ومدده:

آمـــين آمـــين لا أرضى بواحـــدة حتـــى أضـــيف إليهـــا ألـــف آمـــين